

منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

# من الأندلس إلى قشوان

أعمال الندوة التكرمية

للدكتور محمد بن عبود

أعضاء اللجنة التنظيمية

أحمد اليوسفي - مصطفى بنسباغ - إدريس بوهليلة - جعفر ابن الحاج

السلمي - نزار التجديتي - محمد الشريف

الكتاب: من الأندلس إلى تطوان أعمال الندوة التكرمية للدكتور احمد بن عبود

المؤلف: احمد بن عبود

لوحة الغلاف: مريانو برتوتشي

تصميم الغلاف: بوعبيد بوزيد

رقم الإيداع القانوني: 2013 MO 0463

ردمك: 4 - 931 - 31 - 9954 - 978

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطباعة: مطبعة الخليج العربي 152، شارع الحسن الثاني (تطوان)

الهاتف: 05 39 71 02 25 الفاكس: 05 39 71 05 37

## العمارة الروحية الإسلامية بمدينة تطوان

### التشكيل وإعادة التشكيل

د. خالد الرامي  
كلية الآداب مراكش

تبنى المقاربة التي أقترحها لدراسة التراث العمراني والمعماري لمدينة تطوان، على أساسين منهجين: الأول، يقوم على استثمار المعلومات الغنية والدقيقة التي توفرها لنا المادة الوثائقية المتوفرة بمختلف أنواعها كوثائق الأحباس والنوازل الفقهية والحوالات الحبسية وشهادات الخبرة وغيرها من الوثائق التي تزخر بها الخزانات العامة والخاصة بمدينة تطوان. والثاني، يعتمد على تقنيات ومناهج الدراسة الميدانية، كالملاحظة والمقارنة وتقنيات الرفع الميداني، مستفيدين من التطور التقني الحاصل في مجال الإلكترونيات، كاستعمال آلات التصوير الرقمية، والخرائط التفاعلية الرقمية، وتقنيات التوطين الخرائطي وغيرها من التقنيات. وذلك من منطلق اقتناعنا بكون هاذين الأساسين كفيلا بالارتقاء بالبحث في المجال الدراسات العمرانية والمعمارية من مستوى الكتابات الانطباعية والسطحية "والمثالية المعمارية" إلى مستوى النفاذ إلى عمق القضايا والإشكاليات التي يطرحها التراث العمراني والمعماري للمدينة المغربية بشكل عام.

تجمع العمارة الدينية التاريخية بمدينة تطوان بين أنماط وعناصر معمارية أصلية وأخرى مستحدثة أثناء عمليات الترميم والتوسيع المتتالية، ويمكن اكتشاف التغيرات والإضافات الطارئة من خلال دراسة الوثائق والمخطوطات، كما يمكن أن نتهدي إليها عن طريق الدراسة الميدانية للبنية التاريخية من حيث مواد البناء وانسجام عناصر المبنى. ومن الأفيد بالنسبة لتأريخ البنية الانطلاق من دراسة الوثائق التاريخية، والانتهاء عند الدراسة الميدانية المقارنة لتمييز الإضافات والتغيرات المذكورة في الوثائق السالفة.

فدراسة وتحليل محتوى الوثائق بمختلف أنواعها مسألة جوهرية، يجب أن تشكل مفتاح دراسة المدينة العتيقة وفهم مكوناتها العمرانية، لأن دراسة العمارة بدون التأطير التاريخي تظل دراسة مجردة، لا يمكن أن تهدي إلى جذورها ولا مصدرها وهي بهذا المعنى دراسة عامة لا تخضع لمنطق العلم، فبواسطة تاريخ العمارة فقط يمكن فهم إشكاليات ظهور الأنماط المعمارية ومعرفة كيفية انتشارها أو

مواطن استيرادها والتغيرات التي تلحق بالبنائيات التاريخية وغيرها من الإشكاليات التي لا يمكن أن يحلها غير مؤرخ العمارة أو المتخصص في تاريخ العمارة. وتأتي الدراسة المعمارية الميدانية بمثابة الوقوف على حجم التحولات التي طرأت على العمارة الأصلية وتمييزها داخل البنية التاريخية، وفي هذه المرحلة من الدراسة يجب أن تتوفر في الباحث بعض المهارات الأساسية المطلوبة في الدراسة الميدانية من دقة الملاحظة والإلمام ببعض أدوات ومناهج عمل المهندس المعماري؛ كتنقيات الرفع الميداني والرسم وأخذ المقاييس.

وتجب الإشارة هنا إلى أن الدراسة العمرانية والمعمارية لمدينة تطوان العتيقة تطرح مجموعة من الصعوبات فيما يتعلق بتمييز الأصيل من الطارئ في إطار سلسلة الإصلاحات والتوسعات وإعادة التشكيل المتتالية التي طالت المكونات العمرانية بصفة عامة والعمارة الدينية بشكل أدق، وتؤكد هذه الصعوبة إذا علمنا أن المعماريين كانوا حريصين، في كثير من الأحيان، على أن تكون تدخلاتهم وإضافاتهم منسجمة مع العمارة الأصلية، فيعمدون إلى أسلوب المحاكاة سواء من حيث مواد البناء أو أنواع الأقواس وغيرها من العناصر المعمارية، وهو ما يعقد عملية تمييز الإضافات والتغيرات داخل البنية.

ونقف على هذه الصعوبة كذلك في إطار انتقال العناصر المعمارية ومواد البناء، وإعادة استعمالها في أماكن غير أماكنها الأصلية، وإعادة تشكيل بعض البنيات بشكل جزئي أو كلي، كما تثير الدراسة المعمارية أيضا إشكالية اختفاء عناصر معمارية ظلت إلى غاية النصف الأول من القرن العشرين أساسية في العمارة الدينية التطوانية، ولم يبق منها سوى شواهد قليلة في بعض المساجد كما سيتبين على امتداد فقرات هذه المداخلة. فضلا عن غزو مواد البناء الحديثة وتعويضها لمواد البناء التقليدية وما أفرزه من تغيرات في أساليب البناء<sup>1</sup>.

إن هذه التغيرات تفرض على الباحث أن يكون حذرا قبل نسبة أي عنصر معماري أو بنية إلى مرحلة تاريخية معينة اعتمادا على الاستقراء الميداني، ويمكن أن نتصور الحرج الذي سيشعر به عندما يقدم خلاصات تفننها الوثائق والمصادر التاريخية، وللتوضيح أكثر أقدم مثلا يتصل بتاريخ العمارة بمدينة تطوان.

ورد في كتاب "المدينة العتيقة في تطوان دليل معماري" أثناء الحديث عن الزاوية التيجانية ما يلي: "هذه الزاوية تم تأسيسها من طرف أحمد بن عجيبة في

<sup>1</sup> - تبقى الإشارة إلى أننا في هذه الدراسة بصدد تقديم الخطوط العريضة لتطور العمارة الدينية وإبراز ملامحها، دون الوقوف على التفاصيل المعمارية لكل بنية، على أن نخصص لهذا الأمر - في المستقبل - دراسة أو بالأحرى دراسات أخرى.

أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، الفقيه بن عجبية الذي اعتنق الطريقة الدرقاوية لدى معرفته بالشيخ محمد البوزيدي العماري، وقد أتم أعمال الفقيه بن عجبية ابنه عبد القادر في القرن التاسع عشر<sup>1</sup>. وتم إرفاق الحديث عن الزاوية التيجانية بتصاميم وصور جميلة لمرافقها. وبخصوص هذه النقطة أود إثبات هذه التوضيحات:

أولاً، يبدو أن كاتب هذه المادة لا يفرق في مجال التصوف المغربي بين الطريقة التيجانية التي تنسب إلى الشيخ أحمد التيجاني<sup>2</sup> والطريقة الدرقاوية المنتسبة إلى الشيخ العربي الدرقاوي<sup>3</sup>.

ثانياً، الشيخ أحمد بن عجبية الدرقاوي<sup>4</sup> الذي ينسب إليه الكاتب تأسيس الزاوية التيجانية أو بالأحرى فرعها بمدينة تطوان عاش بين سنتي 1160 و 1224هـ (1747 و 1809م)، بينما تفيد الوثيقة التي بين أيدينا أنها بنيت عام 1320هـ (1902م) برزقة المقدم علي أنقاض خربة فارغة إلا من قبر منسوب لمولاي إبراهيم<sup>5</sup> كانت في ملكية المخزن، أنعم بها السلطان مولاي عبد العزيز على أتباع الطريقة التيجانية بمدينة تطوان ليقيموا عليها زاويتهم، وعهد لقائد تطوان آنذاك قدور بن الغازي بتنفيذ الأمر السلطاني<sup>6</sup>، بمعنى أن تأسيس فرع الزاوية التيجانية بتطوان قد حدث بعد حوالي قرن من الزمن على وفاة الشيخ أحمد بن عجبية المؤسس المزعوم للزاوية.

ثالثاً، إن مثل هذه الهفوات والمغالطات، وهي كثيرة على كل حال، تسيء للتراث العمراني والعماري لمدينة تطوان بدلا من التعريف به ونشره.

<sup>1</sup> - المدينة العتيقة في تطوان: دليل معماري، تطوان - إشبيلية 2001، صص. 158-159.

<sup>2</sup> - هو شيخ الطريقة التيجانية معاصر للشيخ العربي الدرقاوي، وتوفي سنة 1815م، وقد ترجمت له العشرات من الكتب.

<sup>3</sup> - عاش مولاي العربي الدرقاوي ما بين عامي 1737 و 1823م التقى مريده الشيخ أحمد بن عجبية عندما قدم إلى تطوان للمشاركة في الحصار الذي ضربه مولاي اليزيد على سبتة السليبية عام 1790م

<sup>4</sup> - أحد أقطاب الطريقة الدرقاوية بشمال المغرب، عاش ما بين عامي 1747 و 1809م ألف العشرات من الكتب، واعتنق الطريقة الدرقاوية وطبق تعاليم شيخه الدرقاوي فخرق العوائد ولبس المرقع وتسلول في الأسواق، مما أدى إلى سجنه وإرغامه على العودة عما هو فيه أو الخروج من مدينة تطوان، وهو لم يؤسس زاوية في تطوان بل كان يجتمع مع الفقراء الدرقاويين في دار أحدهم.

<sup>5</sup> - إبراهيم بن المولى اليزيد بن محمد الثالث بايعه أهل فاس وقدموا به تطوان فمرض ومات ودفن في بيت بدرب المشراي برزقة المقدم وهو المكان الذي بنيت فيه الزاوية التيجانية في بداية القرن العشرين.

<sup>6</sup> - وثائق الزاوية التيجانية بتطوان، وثيقة غير مرقمة.

## تطور شبكة المساجد والزوايا والأضرحة بمدينة تطوان

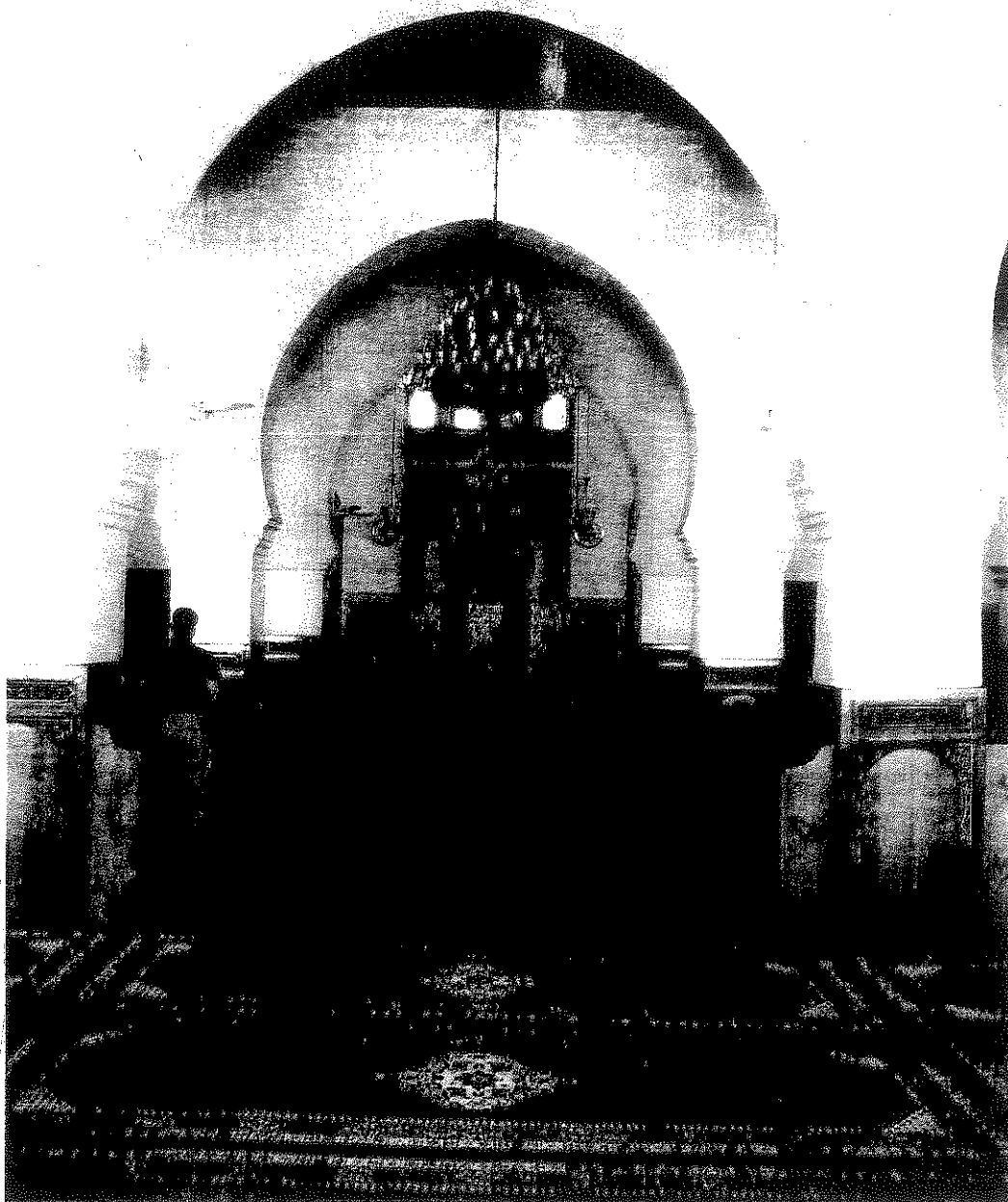
### مساجد الخمس والمساجد الجامعة

تشير وثائق عديدة إلى أن بناء مساجد الخمس والمساجد الجامعة سار في خط مواز لمراحل تعمير المدينة، بحيث كلما بنيت حومة جديدة إلا وتم تجهيزها بمسجد لأداء الصلوات الخمس، وتفيد هذه الوثائق أيضا أن الأمر كان يتم بشكل تضامني من خلال الاكتتاب ومساهمات سكان كل الحي. وارتباطا بطريقة تمويل البناء هذه نجد أن معظم المساجد قد بنيت على مراحل وبشكل تدريجي، بحيث يبنى بيت الصلاة ومرافق الوضوء في المرحلة الأولى ثم يأتي بناء الصومعة والميضأة وغيرها من المرافق في مراحل لاحقة، وهو ما يعني امتداد عمليات البناء والزخرفة لفترات طويلة من الزمن<sup>1</sup>، وكان التركيز على تحقيق الجانب الوظيفي التعبدية، في المرحلة الأولى من البناء، أكثر من تركيزها على الاعتبارات المعمارية والجمالية، وذلك كما أسلفنا الإشارة بسبب محدودية الموارد المالية<sup>2</sup>. وهذا لا ينطبق بالطبع على المساجد الجامعة التي شيدت من طرف السلطة الحاكمة في المدينة كجامع الباشا وجامع لوقش والمسجد الأعظم الذي تم تجديده وتوسعته بأمر من السلطان مولاي سليمان.

تنتمي المساجد بمدينة التطوانية معماریا إلى الطراز المغربي الذي تطور منذ تشييد مسجد القيروان على يد عقبة بن نافع بين سنتي 50 و 55هـ (672 - 677م) الذي اعتبر من طرف مؤرخي العمارة كشهادة ميلاد للطراز المعماري المغربي، ومن العناصر الرئيسية في عمارة المساجد بمدينة تطوان: بيت الصلاة: وهو الجزء الأساسي والمسقوف في عمارة المسجد يكون إلى ناحية القبلة، ويتكون من مجموعة من الأروقة والبلاطات، وتنظم في فضاءه الأعمدة الحاملة للأقواس والسقف الذي يبنى بشكل محذب من الداخل بالخشب "الجايزة" و"الورقة"، ويغطي من الخارج بالقرمود الأحمر أو الأخضر، وتسمى هذه التقنية بـ "سقف البرشلة" armadura، وهو أسلوب مغربي أصيل ميز العمارة الدينية في الغرب الإسلامي عبر القرون، ومن الأندلس انتقل بواسطة الإسبان إلى عمارة الكنائس والمنشأة العامة في دول أمريكا الوسطى والجنوبية تحت مسمى "فن المدجنين" وهي في واقع الأمر تقنية معمارية مغربية صرفة. وقد استعمل أسلوب القباب لتسقيف المسجد مرة واحدة في جامع الباشا.

<sup>1</sup> - حواله أوقاف مسجد الرزني، رسم. 51.

<sup>2</sup> - وعندما يكتمل تعمير مجموعة من الحومات مشكلة وحدة عمرانية يتم تجهيزها بمسجد جامع يجتمع فيه سكانها لأداء صلاة الجمعة، في تكامل وظيفي دقيق بين هذه المؤسسات أفرز لنا في الواقع شبكة دقيقة من مساجد الخمس والمساجد الجامعة بمدينة تطوان كما هو الأمر في المدن المغربية الأخرى.



بيت الصلاة في المسجد الأعظم

ويعتبر جدار القبلة ومنطقة المحراب على وجه الخصوص أغنى مناطق المسجد زخرفة، هذه الزخرفة التي لا تزيد على نقوش كتابية، وهي عبارة عن آيات قرآنية وأشكال هندسية ونباتية منقوشة على الجير أو الجبس، ويضم جدار القبلة أيضا بايين على الأقل واحدة على يمين المحراب لمقصورة الإمام والثانية على يساره ليت يحفظ فيه المنبر. وإلى جانب هذا المحراب الثابت، توفرت معظم المساجد على محراب آخر متنقل بمثابة محراب صيفي يسمى "العثرة" وهو عبارة عن محراب خشبي يوضع في الصحن للصلاة خلفه في فصل الصيف.

**الصحن:** هو الفناء والجزء المفتوح نحو السماء، وقد كان عنصرا أساسيا في عمارة المساجد بمدينة تطوان، يعتمد عليه كوسيلة لتوفير الإنارة الطبيعية بالمسجد، يجهز بخصبة أو خصتين لوضوء المصلين، كما كان الصحن يستعمل للصلوات في فصل الصيف، بإضافة "العثرة" وهي محراب صيفي خشبي كما أسلفنا الذكر، ما يزال الجامع الأعظم يحتفظ بشاهد منه، كما أنه ما يزال يحتفظ بساعته الشمسية. ومن ثمة يمكن القول أن المسجد الأعظم بصفة عامة وصحنه على وجه الخصوص يشكلان نموذجان لعمارة المساجد التاريخية بمدينة تطوان.

**باب الحفا أو باب الحفاة:** من أهم عناصر العمارة المسجدية بمدينة تطوان، وتنطوي على أبعاد بيئية واجتماعية وثقافية عميقة، وهي باب يتم الدخول من خلالها إلى صحن المسجد وتكون في الغالب مقابلة لباب الميضأة، شكلها المعماري عبارة عن باب في أسفلها صهريج قليل العمق (بين 10 و 15 ستمتر) يجري فيها ماء "شبكة السكندو"<sup>1</sup> بدون انقطاع. وتعتبر هذه الباب حلا معماريا ذكيا للحفاظ على نظافة الصحن ونظافة المسجد بشكل عام، ففي صهريج هذه الباب

---

<sup>1</sup> - شبكة السكندو هي الشبكة التقليدية لتوزيع الماء بمدينة تطوان، لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع راجع أطروحة الدكتور محمد البدلاوي، الماء والإنسان بمدينة تطوان: دراسة جغرافية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص جغرافيا بشرية، جامعة عبد المال السعدي، كلية الآداب تطوان، السنة الجامعية 2004 - 2005.

Afkir El houssaine et El abdellaoui Mohamed, « le reseau skundu, ancien systeme d'approvisionnement de la medina de Tétouan en eau potable », revue de la faculté des lettres Tétouan, numero special sur le Rif l'espace et l'homme, 4eme anne, n.4, 1990.

أنظر أيضا كتابنا "النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان من 1862 - 1913 دراسة في العمارة الإسلامية"، منشورات جمعية تطوان أسمى، تطوان، 2008.



يغسل من لا يتعلون الأحذية والقادمون من الميضأة أو غيرها<sup>1</sup> أرجلهم قبل الولوج إلى صحن المسجد للوضوء بماء الخصة التي تتوسطه ومنه إلى بيت الصلاة، وبالتالي شكل هذا العنصر المعماري المائي وسيلة للمحافظة على نظافة المسجد، ويصل بين "باب الحفا" وخصه الوضوء ممشي خشبي يستعمله الداخلون من هذا الباب، ما زال واحد منه في جامع السوق الفوقي عند "باب الحفا" التي فقدت خصائصها المعمارية الأصلية. كما لا يفوتنا القول بأن باب الحفا هذه عنصر معماري تميز به الطراز المغربي عن غيره من الطرز، بحيث لا نجد له أثرا في العمارة الدينية بالشرق الإسلامي ولا حتى في العمارة الأندلسية<sup>2</sup>.

---

1- حوالة جامع الربض الأعلى، الجزء الأول، رسم. 207/197.

2- لا يزال جامع القرويين يحتفظ بباب الحفا على هيئتها الأصلية، كما ورد ذكر باب الحفا في كتاب مساجد القيروان، لنجوى عثمان، كعنصر معماري بأحد المساجد.



الميضأة: وترد في الوثائق أيضا بـ«المستراح»، وهي موضع ليس طاهرا وبالتالي لا يجوز وجوده داخل المسجد، لذلك كانت تبني كعنصر معماري منفصل عن جسم المسجد يفصل بينها وبينه الطريق العمومي، وهي مرفق يستعمل من طرف رواد المسجد وأيضاً من طرف عامة الناس، وتشكل معماريا من مجموعة من الغرف تحيط بالفناء، مع وجود خصة أو صهريج ماء في الوسط أو أحد الجوانب، وفي كل غرفة "نقير" عبارة عن صهريج صغير مزود بماء "شبكة السكندو" والذي يجري بدون توقف، ومن ثمة فقد كانت مساهمة المساجد من خلال هذه المرافق كبيرة في المحافظة على البيئة ونظافة المدينة.

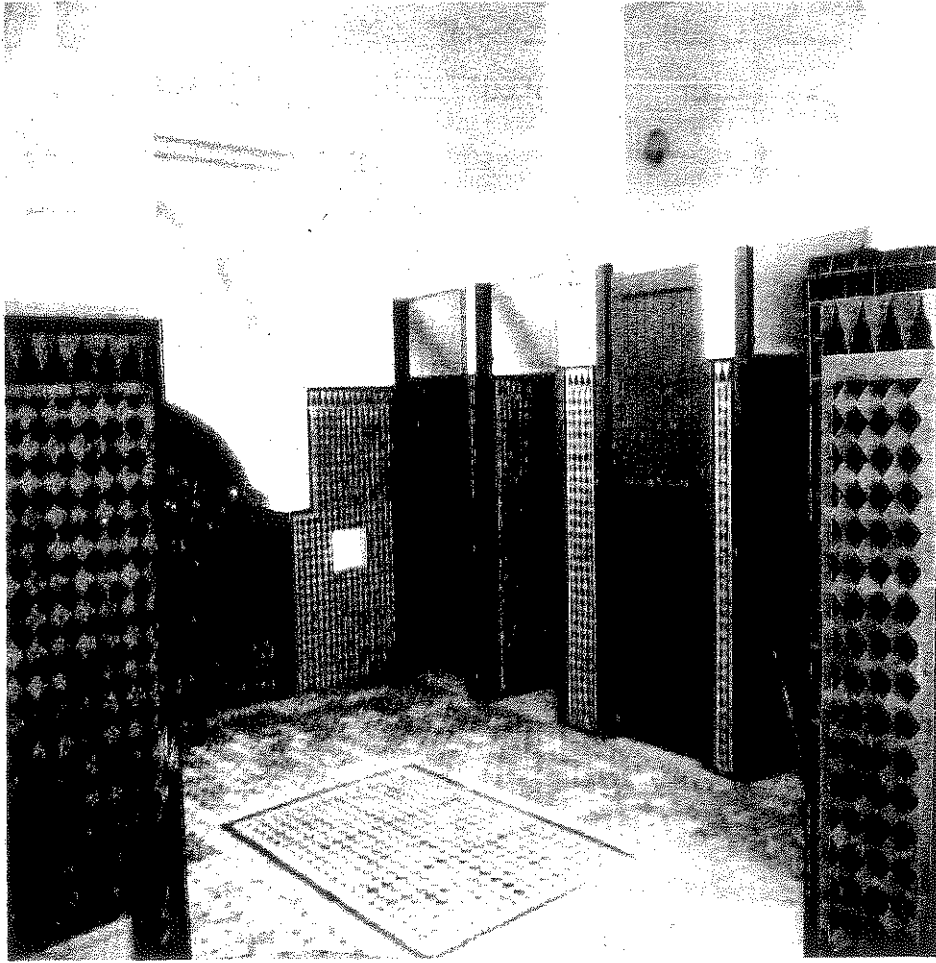
الصومعة: تعتبر الصوامع عنصرا أساسيا في العمارة المسجدية، وتبنى على هيئة برج مربع، يرتفع فيه البدن وينتهي بشرفة، ثم يرتفع بدن آخر ذو مقاييس أصغر يسمى "العزري"، ينتهي بقبة متوجة بثلاث تفاحات، ومن التقاليد المعمارية التي كانت سائدة، بناء الصومعة في الجدار الخلفي المقابل لجدار القبلة، وهي تمتاز بطرازها المغربي البسيط والجميل، باستثناء صومعتي جامع الباشا وزاوية سيدي علي بن ريسون المئمتين، ذوات الطراز المشرقي والتي بولغ في زخرفتهما بالزليج والأشكال الهندسية بالنسبة للأولى والزليج الملون بالنسبة للثانية.

#### الزوايا والأضرحة

عندما نتأمل التاريخ المعماري للزوايا والأضرحة نجده تطور في سياق يختلف عن سياق تطور عمارة المساجد، لأن الزوايا والأضرحة لم تكن ملزمة باتباع نموذج معماري صارم كالذي اتبعته المساجد، سواء من حيث تخطيط البنية وتوزيع مرافقها أو من حيث أساليبها الإنشائية والزخرفية. وجميع الزوايا الكبرى بمدينة تطوان بنيت بمساعدة المخزن، فقد بنى السلطان مولاي إسماعيل الزاوية المرزوقية، وقامت الزاوية الريسونية على أنقاض فندق لوقش الذي وهبه السلطان مولاي سليمان للشيخ سيدي علي بن ريسون لبناء زاويته، وأعان خلفه السلطان عبد الرحمن بن هشام الشيخ محمد الحراق على بناء زاويته بباب المقابر، وكان قبل ذلك يجتمع بمريديه بالجامع الأعظم، وبنيت الزاوية التيجانية على أرض وهبها السلطان مولاي عبد العزيز لأتباع الطريقة التيجانية بتطوان وقد كانوا يجتمعون قبل ذلك في ضريح سيدي أبي جيدة بالخرازين.

وظهرت معظم الأضرحة كبنائيات متواضعة، بعضها كان عبارة عن دار أو جزءا منها يدفن فيها الولي/"السيد" تفتح له باب نحو الشارع لدخول الزوار، ثم توالى الإضافات إلى أن صارت على ما هي عليه الآن، وعلى خلاف المساجد التي تتميز بتصاميمها وهندستها المنضبطة والمتجانسة، نجد التصميم المعماري للزوايا والأضرحة مضطربا في الغالب وغير متجانس نتيجة الإضافات المعمارية المتوالية، والتي تحكمت فيها خلفيات سوسيو-اقتصادية كالسماح باستخدام الأضرحة والزوايا كمدافن.

وتفيد الوثائق بأن بيع القبور بأثمنة باهضة داخل الزاوية أو الضريح كان يشكل تجارة مربحة لأصحابها، وقد تقطن السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى



مiazza جامع القصبة بعد ترميمها ويفصل بينها وبين الجامع

هذا المعطى عندما طلب منه الشيخ سيدي عبد السلام بن ريسون السماح له بضم الرباع المتصلة بالزاوية والتي كانت في ملكية الأحباس الكبرى، فوافق على شرط أن يعود ثمن القبور التي تباع من هذه التوسعة لفائدة طلبة العلم، ومن ثم فاحتضان الزوايا والأضرحة للقبور كان عاملا جوهريا في سلسلة التوسيعات المتتالية التي شهدتها على خلاف المساجد والخوامع التي ضلت مساحتها مستقرة وحتى عندما تقرر توسيعها في عهد الحماية فقد تم اللجوء إلى تسقيف الصحن وإضافته إلى بيت الصلاة<sup>1</sup>.

وعلى سبيل المثال، عرفت الزاوية الريسونية مجموعة من الإضافات المعمارية، وأولها وأهمها تمت على يد سيدي عبد السلام بن ريسون عام 1857، بعدما ضاقت الزاوية بالمصلين في صلاة الجمعة والجماعة خصوصا في أيام المطر<sup>2</sup> وعلى أثر هذه التوسعة فتحت للزاوية باب جديدة في شارع المارستان. ويبدو أن هذه الزيادة كانت مهمة للدرجة أن أهل تطوان كانوا يميزون بين الزاوية الأصلية التي بناها سيدي علي بن ريسون وإضافة سيدي عبد السلام التي اعتبروها زاوية مستقلة ملحقة بالأولى، فوردت بالوثائق عبارات من قبيل "الزاوية الجديدة التي بناها سيدي عبد السلام المذكور وضمتها لزاوية والده"<sup>3</sup>. و"هي الجديدة المتصلة بزاوية أبيه سيدي علي المذكور"<sup>4</sup>.

وفي عام 1898 زاد أولاد عبد الكريم بريشة في الزاوية لجهة قبلة ضريح سيدي عبد السلام. وكان آخر الزيادات التي شهدتها الزاوية تلك التي أنجزها الحاج العربي الدفوف عام 1932 حينما اشترى بناية المارستان - الذي كان يحدها من جهتي الشرق والجنوب - من أحباس المنقطعين وأضافه للزاوية<sup>5</sup> وفتحت بفضل هذه الإضافة باب جديدة على شارع الصياغين.

كان بيت الصلاة الذي يستعمل للصلاة وعقد حلقات الذكر، يحتوي على ضريح الشيخ يتموضع قرب المحراب في الغالب، أو في مكان قريب منه، وتوضع "الربيعية" في مكان معين لجمع هبات وتبرعات المريدين والزوار، وتشغل القبور الأرضية، وتسقف - الزوايا والأضرحة - بالقباب المزخرفة بالأشكال الهندسية

<sup>1</sup> - هذا إلى جانب تزايد أعداد المريدين، وأرجحية بعضهم الذين تحملوا النفقات التي تتطلبها أعمال التوسيع، ثم قيام بعض الأشخاص بتحييس دار أو دكان متصل بالزاوية ليضاف إليها، على شرط أن يخصص جزء منه يدفن فيه هو وأفراد أسرته.

<sup>2</sup> - حوالة أوقاف الزاوية الريسونية، رسم. 86.

<sup>3</sup> - حوالة أوقاف الزاوية الريسونية، رسم. 86.

<sup>4</sup> - حوالة أوقاف الزاوية الريسونية، رسم. 108.

<sup>5</sup> - حوالة أوقاف المنقطعين، رسم. 217/223.

الجميلة. ونسجل اختلافات معمارية أخرى بين المساجد والزوايا والأضرحة من بينها:

- عدم إلزامية الصحن، فالعديد من الزوايا لم يشكل الصحن أحد عناصرها، كالزاوية التيجانية والكتانية والحنصالية والحراقية، بينما توفرت غيرها على صحن كالزاوية الريسونية والناصرية والعيساوية.

- عدم وجود الميضاة في عدد من الزوايا والأضرحة (والميضاة غير مكان الوضوء) وعندما توجد لا تحترم التقليد الذي سلكته عمارة المساجد بل تكون ملتحمة بالزاوية أو الضريح، وهذا يعني بالضرورة عدم وجود "باب الحفا".

- باستثناء ضريح سيدي الصعيدي والزاوية الريسونية والزاوية الفاسية لم تتضمن الزوايا والأضرحة الصومعة كعنصر من العناصر المعمارية، ولم تجهز بهذا العنصر المعماري إلا في عهد الحماية عندما اقتضت الضرورة توسعتها وإحداث صلاة الجمعة بها، بعد أن ضاقت المساجد الجامعة عن استيعاب الأعداد المتزايدة من المصلين، ونفهم من هذا التلازم بين إحداث صلاة الجمعة وبناء الصومعة في بعض الزوايا والأضرحة جانبه المعماري الرمزي وليس الوظيفي، لأنه في الوقت الذي ظهرت مكبرات الصوت لتعفي المؤذن من صعود سلاط الصومعة، يتم بناء الصوامع للزوايا والأضرحة كالزاوية الناصرية والزاوية العيساوية بالفدان والقادرية وضريح سيدي عبد الله الحاج بالفدان وضريح سيدي علي بركة بالسوق الفوقي. في حين لا تزال الزاوية الحنصالية والزاوية الحراقية والزاوية التيجانية والزاوية الكتانية بدون صوامع وبالتالي لا تؤدي فيها صلاة الجمعة. ومن المثير للانتباه أن جميع الصوامع التي أضيفت خلال مرحلة الحماية بنيت فوق أبواب الزوايا مع العلم أن التقليد المعماري كان يقضي ببنائها في ركن الجدار المقابل لجدار القبلة.

### المنافسة السياسية عامل مفيد للعمارة الروحية

تبرز العلاقة بين السياسة والعمارة بجللاء في مدينة تطوان خلال القرن الثامن عشر، فقد استغل العمران كسلاح في المنافسة السياسية الشرسة بين أسرتي الباشا أحمد الريفي، وأسرة لوقش، هذه المنافسة التي بلغت ذروتها عقب وفاة السلطان مولاي إسماعيل، حيث تزعم القائد الحاج عمر لوقش ثورة المدينة ضد الباشا أحمد الريفي. المهم بالنسبة لنا من هذه المنافسة هو الإفرازات العمرانية والمعمارية لهذا الصراع السياسي، فكلتا الأسرتين حاولتا استغلال المجال العمراني والمعماري

كوسيلة للدعاية السياسية في بحثهما عن الشرعية والأحقية بتولي السلطة من الأسرة المنافسة<sup>1</sup>.

إن المطلع على التاريخ العمراني والمعماري لمدينة تطوان يكتشف أن أجل المعالم المعمارية وأضخمها والتي تفتخر بها المدينة اليوم يرجع تأسيسها إلى القرن الثامن عشر، وبشكل أكثر تحديدا إلى أحد أفراد الأسرتين السالفتي الذكر، وهكذا فقد أسس الباشا أحمد الريفي جامع الباشا، الذي يعتبر إضافة فريدة إلى العمارة التطوانية، تستوحي خصائصها من العمارة المشرقية والتركية على وجه التحديد. كما أعاد بناء ضريح سيدي عبد الله الفخار وسيدي عبد القادر التبين، وبنى ضريح سيدي الصعيدي والسقاية الجميلة المتصلة به، وبرج مارتيل والمارستان الذي كان يوجد في حومة الصياغين وتم إدخاله في توسعة الزاوية الريسونية عام 1932 كما ذكرنا سلفا، وقصري الباشا المذكور في كل من المشور قرب الفدان ومنتزه كيتان، واللذين أثارا إعجاب الرحالة الأوربيين<sup>2</sup>.

وفي الجهة المقابلة نجد القائد الحاج محمد لوقش، يعمل على تشييد منشآت معمارية تضاهي ما شيده الباشا أحمد، فشيد جامع لوقش وهو جامع فسيح وشيد بجواره مدرسة لطلبة العلم، من أحسن وأكبر المدارس التي شهدتها مدينة تطوان عبر تاريخها، كما شيد سقايتين كبيرتين عند بابين من أهم أبواب المدينة، وهما سقاية باب العقلة، وسقاية باب التوت. هذا إلى جانب تدعيم النظام الدفاعي للمدينة ببناء الأسوار والأبراج كبرج لوقش قرب القصبة<sup>3</sup>. ومن ثمة يمكن القول إن المنافسة السياسية بين الفريقين كانت مفيدة لتطور العمارة والعمران بصفة عامة والعمارة الدينية على وجه الخصوص.

#### الأنماط المعمارية

تعكس العمارة روح العصر الذي أنتجت فيه؛ تتأكد هذه الحقيقة بجلاء من خلال ربط العمارة الروحية التطوانية بخلفياتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، علما بأن الموقع الاستراتيجي للمدينة جعلها مفتوحة على المؤثرات العمرانية والمعمارية الآتية من الخارج.

<sup>1</sup> - والأمر الذي يؤكد الوجه العمراني للصراع هدم قصور الباشا في كيتان وعمر اسم الباشا من بعض المعالم كالسقاية المجاورة لضريح سيدي الصعيدي، كما عرف هذا الصراع امتدادات ثقافية تجند فيها الشعراء والأدباء من الطرفين لتمجيد طرف ومحاولة النيل من الطرف النقيض.

<sup>2</sup> - John Braithwaite, *histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier emprur molay Ismail*, Amsterdam, 1731, P.87.

<sup>3</sup> - أنظر الصراع بين الأسرتين ومنجزاتهما العمرانية والمعمارية بالتفصيل في كتاب تطوان خلال القرن الثامن عشر، تاريخ وعمران، خالد الرامي، تطوان، 2005.

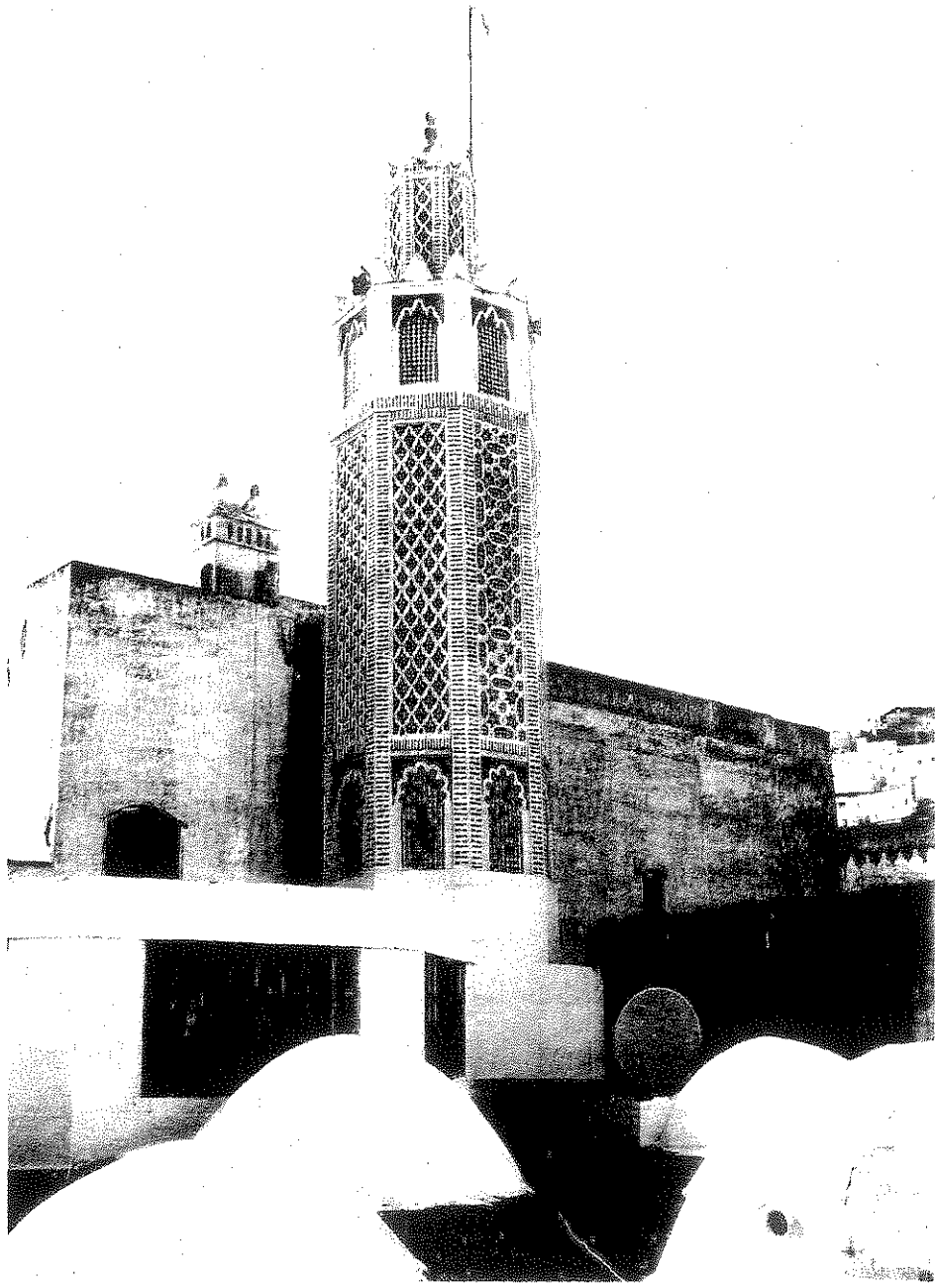
بدأت العمارة التطوانية أندلسية مغربية تتسم بالبساطة والجمالية، ويمكن أن نقف على اللمسة المعمارية الفاسية في ضريح سيدي الصعيدي<sup>1</sup> والمراكشية في جامع العيون<sup>2</sup>، والوثائق تورد أسماء معماريين كبار بمدينة تطوان وفدوا إليها من مدن أخرى، وعلى كل حال، فبين العمارة المغربية والأندلسية تشابه كبير جداً، يصعب في كثير من الأحيان التمييز بينهما، وعمارة مدينة تطوان عمارة مغربية بلمسة أندلسية.

---

<sup>1</sup> - يرى الأستاذ بوعبيد بوزيد أن الزليج الذي يغطي جهات "العزري" الأربع بصومعة ضريح سيدي الصعيدي ذو طراز فاسي.

<sup>2</sup> - ورد في كتاب نزهة الإخوان لعبد السلام السكيج أن بناء جامع العيون كان تحت إشراف معماري مراكشي، نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في بناء تطوان، تحقيق يوسف حنانة، تطوان، 2006، ص. 43.





صومعة جامع الباشا الثمانية والسقف بني علي شكل قباب صغيرة رشيقة

ومشغول المدينة النمط المعماري التركي من خلال بناء جامع الباشا، كما يوضح من خلال صميمته الثمانية الأضلاع وسقفه ذي القباب الصغيرة دون استعمال تقنية البرشلة (الخشب والقرمود) armadura كما هو التقليد المعماري السائد بالمدينة، هذا النمط سيظهر مرة أخرى في بداية القرن التاسع عشر، في زاوية سيدي علي بن ريسون بالصياغين، ودخل هذا النمط المعماري إلى المدينة عن طريق المهاجرين الجزائريين عندما كانت الجزائر ولاية عثمانية. ونظرا لكون تصميم جامع الباشا كان غريبا على التطوانيين فقد لجأوا لنسج قصة أسطورية لتفسير ما لم يستطيعوا إدراكه، جعلت بروز هذا النمط المعماري ناتج عن تحد بين أمين البنائين وأمين النجارين<sup>1</sup>.

ويسود الاعتقاد أن المشهد المعماري التطواني قد تعزز في عهد الحماية بدخول نمط عمارة المدجنين mudéjar مستندين إلى شكل وخصائص عمارة الصوامع التي أضيفت في هذه الفترة كشبكة المعينات paño de sebka التي ميزت هذا النمط، وبخصوص هذه المسألة أود أن أدلي بالتوضيح التالي.

إن شبكة المعينات paño de sebka ما هو في الحقيقة غير عنصر من عناصر النمط المغربي، ظهر لأول مرة في منارات تينمل والكتيبة وحسان ولاخير الدا ومن ثمة فهو ابتكار معماري موحد ونمط مغربي أصيل اقتبسته العمارة الأندلسية ثم عمارة المدجنين كاستداد لها، وهنا يجب عدم إغفال مساهمات المماريين المغاربة في القيام بأعمال معمارية كبرى بالأندلس كما هو الأمر بالنسبة للمهندس المشرف

---

<sup>1</sup> - تذكر الأسطورة أنه كان بالمدينة مهندس في النجارة كان شيخ النجارين، فلما عهد القائد أحمد لشيخ البنائين ببناء مسجد الباشا حز في نفس شيخ النجارين وأمينهم، حيث أن المباني العامة كانت تسند في الأكثر إلى أمين البنائين والنجارين، وعندما دار الحديث في مجلس النجارين عن إسناد أمر إنشاء المسجد إلى أمين البنائين وحده، قال أمين النجارين: لا بأس عليهم فإن الرجل لا بد أن يتوقف على النجارة، وسوف يحتاج المسجد إلى سقف. وبلغ الخبر أمين البنائين، فغضب وآلى على نفسه إليه أن لا يحتاج إلى نجار. ثم مضى البناء في طريقه، وبنى المسجد على شكل المساجد المسقوفة بالخشب، فلما جاء وقت السقف، جعله قبابا صغيرة جميلة، ووصل الخبر إلى أمين النجارين فقال سوف نرى ما يفعله في شأن الأبواب. وصمم البناء على أنه سوف يتجزئ كل المسجد دون حاجة إلى النجار، فقبل له: وماذا تصنعه في الأبواب؟ فأكد أنه سيتخذ أبوابا من بناء، لكنه فكر وأطال التفكير، فلما لم تبق إلا الأبواب، وأصبح المعلم النجار مهددا بالهزيمة، إذا به يقرر في نفسه أن يهيم على وجهه دون أن يعلم به أحد. وفي الليل قصد بنيته، وكتب على الباب "اطبع الباب، وارحم المعلم النجار"، ثم خرج من المدينة مستترا، فكان آخر العهد به. وجاء شيخ النجارين وأقام الأبواب، وأصبح المسجد يسمى مسجد الباشا. التهامي الوزاني، مدرسة لوقش، تلمذ من. 42.

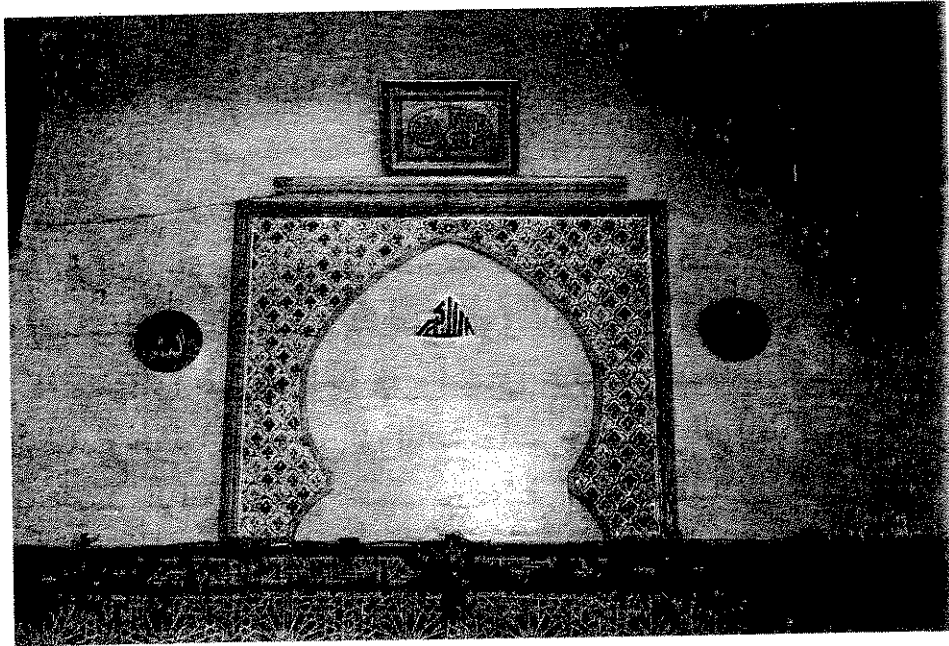
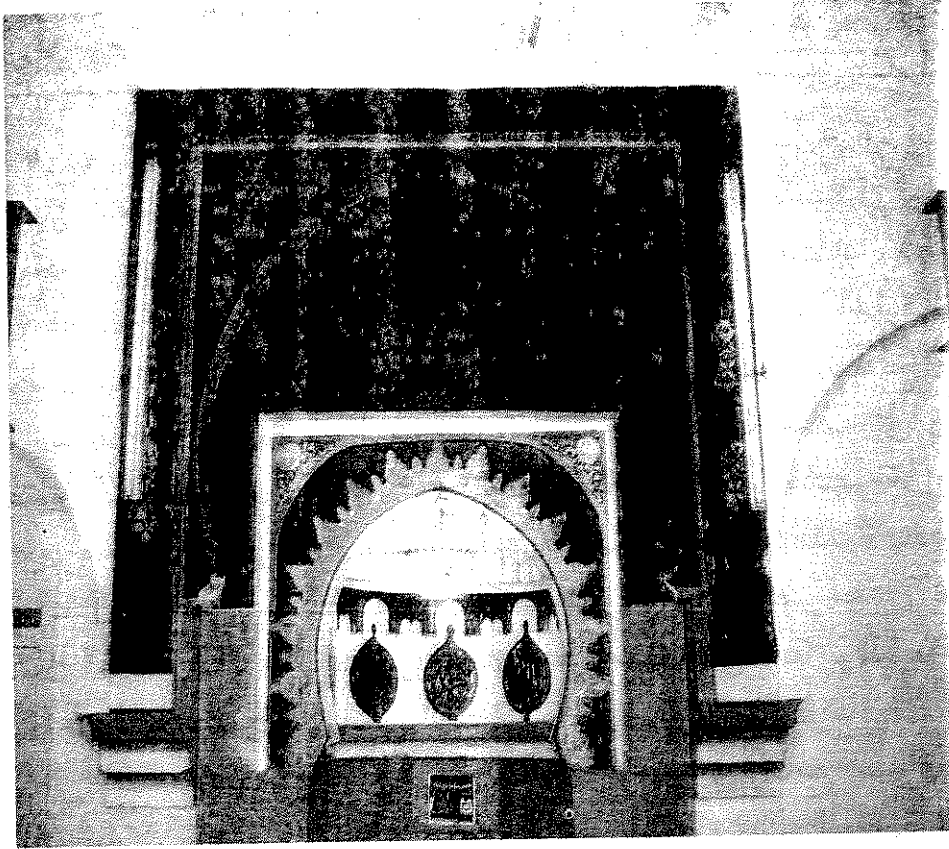
على بناء صومعة المسجد الجامع بإشبيلية "لا غير الذا" وهو المغربي علي الغماري والذي تتجاهل ذكره كتب تاريخ العمارة الأندلسية<sup>1</sup>.

### إشكالية الأصل والمستحدث في العمارة الروحية التشكيل وإعادة التشكيل

إن دارس العمارة الدينية التاريخية بمدينة تطوان يجد نفسه أمام مزيج من العمليات المعمارية التي شهدتها منذ إنشائها الأول إلى الوقت الحاضر، بحيث تميزت بمرونة وحركية معماريتين حثيتين تجلت مظاهرها على أكثر من مستوى؛ من تشكيل وإعادة تشكيل البنايات التاريخية، كتغيير حجم الأقواس؛ بحيث تم رفع لحى أقواس جامع العيون على ما كانت عليه في الأصل بنصف متر، وهذا يعني أنها كانت شبيهة بأقواس جامع الجديدة بالعيون ذات الأعمدة القصيرة واللحي المنخفضة، تغيير حجم الأقواس طال أيضا أقواس صحن الجامع الأعظم، لكن بشكل معكوس حيث كانت الأقواس مرتفعة فكان المصلون يتضررون من دخول الأمطار في فصل الشتاء، فتوصل أرباب البصر إلى حل معماري يقضي بناء قوس داخل القوس الأصلي لخفض ارتفاعه مع الحفاظ على جماليته، حتى أن الرائي لا يستطيع التمييز بينهما ويعتقد أنهما قوس واحد بني في وقت واحد. كما يقف الدارس للعمارة الدينية على اختفاء عناصر معمارية أساسية وظهور أخرى جديدة، خصوصا مع كثرة الإصلاحات والإضافات التي كانت تشهدها من وقت لآخر. الحقيقة أن حالات إعادة التشكيل المعماري للمساجد والزوايا والأضرحة كثيرة، ويختلف حجم التدخلات التي شهدتها هذه البنايات التاريخية بين إعادة تشكيل جذري كما حدث في حالات جامع السوق، وإعادة تشكيل جزئي وهو الغالب، وبخصوص النوع الثاني، تعترض الباحث صعوبة التمييز بين التغييرات والإضافات، لأن المعماريين كانوا يجتهدون على أن تكون إضافاتهم متجانسة مع العمارة الأصلية، وهذا ما توضحه الوثيقة التالية:

"الحمد لله عن نائب من يجب حفظه الله وقف العارفان بأحوال البناءات وأتماتها ممن يرجع إليهم في علم ذلك بتطوان وهما المعلمان السيد عبد القادر بن محمد

<sup>1</sup> - عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت 594هـ / 1198م)، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1987، ص. 392.



صورتان لحراي الزاوية العيساوية بالفدان، الأولى للمحراب الأصلي وكتب في  
 المثلث فوق قوسه صنع عام 1221 والثانية للمحراب المسطح المستحدث أثناء  
 تسقيف الصحن وعوض التاريخ كتب في مثله عبارة "الله أكبر"

من جهة أخرى نقف بالزاوية العيساوية بالفدان على محرابان، أحدهما أصلي نقش فوق دائرته "صنع عام 1221" (1806م)، وهو تاريخ بناء الزاوية، وقد أصبح ثانويا، ونجد محرابا آخر على نمط المحارب الفاطمية المسطحة، وقد بني أثناء توسعة الزاوية في عهد الحماية حيث تم تسقيف الصحن فأصبح المحراب الأصلي متأخرا عن المصلين في الصحن الذي أصبح جزءا من قاعة الصلاة، مما حتم بناء محراب جديد في جدار قبلة الصحن القدم الذي أصبح امتدادا متقدما لبيت الصلاة، فأصبح شبيها ببعض المساجد المشرقية من حيث تعدد المحارب، كجامع ابن طولون بالقاهرة الذي يحتوي على ستة محارب بعضها مسطح كمحارب السيدة زينب. هذا إلى جانب التغييرات الطفيفة التي كانت تهدف إلى رفع الحرج عن المصلين أثناء إقامة شعائهم، كفتح نوافذ إضافية للإضاءة والتهوية.

ومن مظاهر الحركة المعمارية التي شهدتها العمارة الدينية بمدينة تطوان نسجل انتقال عناصر ومواد البناء بين المساجد والزوايا والأضرحة في إطار إعادة الاستعمال، بحيث كان قلع عناصر معمارية من مسجد وإعادة توظيفها في عمارة مسجد آخر ظاهرة تميز بها العمل العمراني بالمدينة. ومن ذلك ما جاء في إحدى الوثائق عن استعمال رخام مقلوع من مسجد لوقش في جامع السوق الفوقي<sup>1</sup>. كما كان بيع الأنقاض من الأمور المعمول بها أيضا في مجال العمارة على نطاق واسع.

#### التحولات المعمارية قبل عهد الحماية.

خلفت حرب تطوان سنة 1859 - 1860 هدمًا وخرابًا كبيرين في العمارة الدينية، فهدمت ثلاث مساجد بشكل كلي، وعدد آخر من المنشآت الدينية تعرضت لخراب جزئي تفاوت حجمه<sup>2</sup>. وجاء في المصادر المغربية أن الإسبان كسروا القباب الخشبية الموضوعة على قبور الصلحاء، كسيدي الصعيدي، وسيدي علي بركة وسيدي عبد الله الحاج، وسيدي عبد الله الفخار. كما حفروا عددا من قبور الأولياء وحولوا عددا من زواياهم وأضرحتهم إلى مرابط للخيول<sup>3</sup>، وقد كلف السلطان محمد الرابع الأمين محمد بن عبد الكريم اللبادي تحت إشراف القائد

<sup>1</sup> - دفتر شهادات الخبرة، وثيقة رقم. 425/271

<sup>2</sup> - وتذكر المصادر المغربية أن المختلين لم يتركوا من المساجد إلا أربعة أو خمسة لم يمحوها، وفي نفس الصدد ذكر محمد داود أنهم اتخذوا ضريح سيدي عبد الله الحاج البقال كنيسة كاثوليكية، أطلقوا عليها اسم "سيدتنا ذات الانتصارات" "nuestra señora de las victorias" وحولوا جامع الباشا إلى مخزن للأرز والشعير، وحولوا جامع القصبة مخزنا للخبز، وحولت زاوية بن الفقيه إلى مستشفى، والزاوية الفاسية بالطنينكات صارت حانة يباع فيها الخمر وضريح سيدي الصعيدي صار مخزنا للبارود وآلات الحرب، محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الخامس، ص. 326.

<sup>3</sup> - نفسه ص. 327

والقاضي بإصلاح المساجد وممتلكاتها الخيرية من بيت مال المسلمين. ومن المساجد التي أشرف على إصلاحها نجد المسجد الأعظم، ومسجد الرابطة ومسجد غيلان، (جامع عرسية) ومسجد الساقية الفوقية، ومسجد العيون، وزاوية سيدي غلي بركة، وزاوية سيدي أحمد بن ناصر، وزاوية سيدي عبد القادر الفاسي بالآرنكات.

وإلى جانب خراب المساجد والزوايا والأضرحة فقد لحقت بممتلكاتها الخيرية خراب كبير استمرت آثاره لعشرات السنين حسب الإفادات الوثائقية<sup>1</sup>.

### التحولات المعمارية خلال مرحلة الحماية والسنوات الأولى للاستقلال:

أصبحت مدينة تطوان منذ عام 1913 عاصمة إدارية لمنطقة نفوذ الحماية الإسبانية بشمال المغرب، الأمر الذي جعلها تعرف تطورا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وتضاعف عدد سكان المدينة مما استلزم إضافة مساجد جديدة للصلاة وخصوصا صلاة الجمعة، وبما أن المدينة العتيقة كانت قد وصلت مرحلة الإشباع العمراني، لذلك تم البحث عن حلول معمارية داخل المدينة العتيقة نفسها، عن طريق توسعة المساجد الجامعة وتحويل مساجد الخمس إلى مساجد جامعة عن طريق تغييرات معمارية خفيفة، وهو ما ساهم في التخفيف من حدة المشكل، لكن هذه الحلول كانت تقاومها وخيمة على شخصية العمارة الدينية التطوانية وأصالتها.

وشهد العمل المعماري في عهد الحماية تغييرات كبيرة، سواء فيما يتعلق بدخول مواد بناء حديثة كالخشب والإسمنت أو فيما يتصل بأساليب وتقنيات البناء، فحدثت تغييرات جوهرية أعادت تشكيل البنايات وتنظيم فضائها ومراقبتها وهو ما كانت له انعكاسات شديدة على هوية وأصالة العمارة التقليدية المحلية. وفيما يلي نلخص أهم التحولات التي شهدتها العمارة الدينية في عهد الحماية والسنوات الأولى للاستقلال:

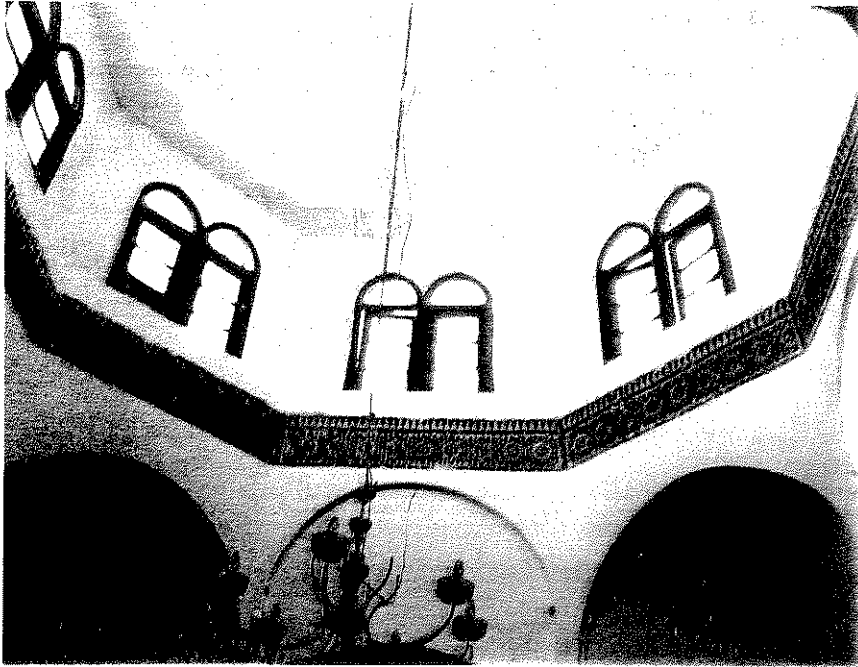
#### • إضافة الصوامع: من بين التحولات المعمارية التي شهدتها العمارة الدينية،

بناء صوامع لزوايا وأضرحة لم تكن مبنية في الأصل كبناء صومعة لضريح سيدي عبد الله الحاج وأخرى لزاوية سيدي أحمد بن ناصر وكان الهدف هو إحداث صلاة الجمعة بما بعد أن كانتا تقتصران على الصلوات الخمس. وهو ما يمثل تناقض طريف بحيث أنه في الوقت الذي تم اختراع مكبرات الصوت، التي بإمكانها أن تغني المؤذن عن صعود عشرات

<sup>1</sup> - بخصوص هذه النقطة راجع ما ذكرنا في كتاب النظام الأميل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1862 - 1913، دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات جمعية تطوان أمهر، تطوان، 2008، ص. 96.

الدرجات ليوصل صوته إلى أكبر عدد ممكن من الناس، نجد التوجه نحو بناء صوامع لأضرحة وزوايا ظلت قرون من دونها، وهو أمر يفسر بتحول سبب وجود الصومعة من الوظيفة إلى الرمز، وهو شيء نلمسه حتى الآن، بحيث جميع المساجد التي تشيد اليوم في مختلف مناطق العالم الإسلامي لا تستغني عن الصومعة.

● تغيير الأسقف الخشبية "تقنية البرشلة" armadura بأخرى إسمنتية: وهذا التحول يتزامن مع دخول مواد البناء الحديثة، كالحديد والإسمنت وأساليب العمارة العصرية، فتم الاستغناء في العديد من المساجد عن الأسقف الخشبية المغطاة بالقرميد — بتقنية البرشلة — وعوض بسقف مستو، معتمد على المواد الحديثة المذكورة.



طريقة تسقيف المساجد والزوايا والأضرحة خلال عهد الحماية وبداية عهد الاستقلال: نموذج سقف صحن ضريح سيدي علي بركة بالربض الأعلى



تبين الصورة الأولى سطح صحن جامع لوقش بعد تسقيفه على شكل قبة،  
بينما تبين الصورة الثانية صومعة الزاوية الريسونية المئمنة المزينة بالزليج الملون  
وإلى جانبها يظهر سطح الصحن الذي بني بشكل مستوي



تسقيف الصحن: كان تسقيف الصحن يهدف إلى توفير مساحة أكبر لبيت الصلاة، فتم الاستغناء عن الصحن كوحدة معمارية رئيسية لازمت عمارة المساجد منذ بناء جامع القصبة كأول مسجد بالمدينة، تستعمل لإنارة أروقة المسجد، ويتوضأ المصلون في الخصة التي تتوسطه، و يستعمل للصلاة أيضا في فصل الصيف بإضافة "العزة"، ولعل الشاهد الوحيد المتبقي للصحون التي كانت تحتوي عليها المساجد ووظائفه المتعددة، هو صحن الجامع الأعظم.

- اختفاء الخصة: باستثناء حالة الزاوية الريسونية التي تم تسقيف صحنها دون الاستغناء عن الخصة التي يبدو أنها قد أزيلت عن مكانها قليلا إلى يسار الداخل من الباب الرئيسية، فإن تسقيف الصحون أدى بشكل تلقائي إلى إلغاء الخصة لإتاحة مكان أفسح للصلاة.
- اختفاء باب الحفا: على الرغم من الاحتفاظ بهذه الباب إلا أنها فقدت خصوصياتها المعمارية والوظيفية، فاختفى صهريج الماء الذي يغسل فيه الداخلون أرجلهم، وصارت باب من أبواب المسجد دون خصائص معمارية تذكر.
- اختفاء الخواب الصيفي: لقد كان من النتائج المباشرة أيضا للاستغناء عن الصحن، اختفاء "العزة" كمحراب خشبي صيفي يوضع في الصحن ليستعمل للصلاة في فصل الصيف.
- إعادة تشكيل الميضاة: وقد خضعت ميضات العديد من المساجد لعمليات إصلاح أعادت تشكيلها بالتوسعة أو التضييق، والاستعاضة عن الخصة بصهريج<sup>1</sup>، أو تسقيفها وبناء دويرية فوقها<sup>2</sup>، أو تحويل الميضاة نفسها إلى دار كما هو الشأن بالنسبة لميضاة جامع الجديدة بالربض الأسفل.

ومن جهة أخرى تشكل هذه البنايات الدينية في حد ذاتها وثائق تاريخية موثوقة لفهم جوانب من تاريخ المدينة، لأنها بنايات تاريخية تطورت وشهدت تغييرات استجابة لمتطلبات اجتماعية وسياسية وثقافية، ومن ثم فهي تعبر عن روح المرحلة التي شيدت فيها، وهذا أمر يتضح جليا على امتداد فقرات هذا العمل. ويمكن القول إن البحث التاريخي مفيد لدراسة العمارة الأصيلة، بالقدر الذي تساعد الدراسة المعمارية على فهم الجوانب المستعصية من تاريخ المدينة.

<sup>1</sup> - دفتر المعاينات وشهادات الخبرة، رسم. 410/262.

<sup>2</sup> - دفتر المعاينات وشهادات الخبرة، رسم. 279 /164.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما هو موقع عمارة مساجد اليوم من عمارة المساجد الأصيلة؟ وهل تعبر هذه العمارة بصدق عن هويتنا الحضارية والمعمارية الأصيلة، وما راكمته من خصائص إبداعية؟ أعتقد أن القارئ لن يختلف معي إن قلت: إن الأجوبة بالطبع سلبية.

#### مصادر الدراسة.

أنجزت هذه الدراسة اعتماداً على الدراسة المعمارية الميدانية للمساجد والزوايا والأضرحة بمدينة تطوان العتيقة وتحليل الوثائق المخطوطة. وهذه قائمة بالمادة التوثيقية المعتمدة:

- حوالة أوقاف الزاوية الريسونية.
- حوالة أوقاف المنقطعين.
- حوالة أوقاف مسجد الرزيني.
- حوالة جامع الربض الأعلى، الجزء الأول.
- وثائق الزاوية التيجانية بتطوان.
- دفتر المعاينات وشهادات الخبرة بنظارة أحباس تطوان
- ابن صاحب الصلاة عبد الملك (ت 594هـ / 1198م)، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1987.
- التهامي الوزاني، مدرسة لوقش. تقدم نادية الرزيني، منشورات جمعية تطاون أسمىر، تطوان، الطبعة الأولى، 2002.
- الرامي خالد، النظام الأصل لتوزيع الماء بمدينة تطوان من 1862-1913 دراسة في العمارة الإسلامية"، منشورات جمعية تطاون أسمىر، تطوان، 2008.
- الرامي خالد، تطوان خلال القرن الثامن عشر، تاريخ وعمران، خالد الرامي، تطوان، 2005.
- السكيج عبد السلام، نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في بناء تطوان، تحقيق يوسف حنانة، تطوان، 2006، ص. 43.
- عبداللوي محمد، الماء والإنسان بمدينة تطوان: دراسة جغرافية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص جغرافيا بشرية، جامعة عبد المال السعدي، كلية الآداب تطوان، السنة الجامعية 2004 - 2005.

● مجموعة من المؤلفين، المدينة العتيقة في تطوان: دليل معماري، تطوان - إشبيلية 2001.

● محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الخامس، المطبعة المهدية، تطوان، 1965.

- John Braithwaite, *histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier emprur molay Ismail*, Amsterdam, 1731.
- Afkir El houssaine et El abdellaoui Mohamed, le reseau skundu, ancien systeme d'approvisionnement de la medina de Tétouan en eau potable, *revue de la faculté des lettres Tétouan*, numero special sur le Rif l'espace et l'homme, 4eme anne, n.4, 1990.